بيوتنا المصرية خليط عجيب من عصور شتى وأجيال عديدة ، يتجاور فيها القديم والحديث ، ويتزاحم الماضى والحاضر ، ويتشارك الجاهلى والمخضرم والمولد ، ولقد يخطر لى وأنا أدور فى البيت ، وأتأمل مختلف ما فيه كأن نفرا مسافرين من أمم شتى التقوا فى موضع ، فجاء كل منهم بطعامه ، وجلسوا يأكلون معا . وهى صورة مألوفة . وما أكثر ماتقع العين على مناظر هذا الهداء بين الآثار المصرية فى فصل الشتاء.

كذلك أرى بيتى : الأمر فيه واحد ، ولكنه على هذا خليط فى ناسه وملابسه ، وفى متاعه وأوانيه ، فهو أشبه بالمتحف منه بالمسكن : ها هنا غرفة حديثة الطراز ، ولكن الوالدة ـ أطال الله عمرها ـ تأبى إلا أن تفرش أرضها تحت البساط بالحصير ـ من الجدار إلى الجدار ـ وأرى أنا أطراف هذه السقيفة بادية من الجهات الأربع ، ومفسدة منظر الغرفة ، ومجافية لكل ما فيها ، فأعترض ، فلا تسمع لى ، ولا تعبأ بى ، ثم تروح تبين لى أن الحصير يحصر التراب ، ويقى البساط البلى . . وأنابيب الماء فى البيت ، والحنفيات والأحواض قائمة فى مكانها . ولكن الزير لابد منه ، ولا غنى عنه ، والكوز يجب أن تكون له بلابل . الأباريق والطشوت أنواع ، وإن كان لايستعملها أحد ، والقوارير لا يأخذها إحصاء ، وهى أشكال منها القصير والطويل والمديد العنق ، والضخم البطن ، والمضلع المستدير الخ . ولا أدرى ما حاجة البيت إليها ، ولكن الذى أدريه أن كل زجاجة دواء تفرغ تغسل وتنظف ، وتحفظ ، وترص مع أخواتها ، وعددها يزداد على الأيام حتى لأحسبنى أحتاج إلى غرفة خاصة به ، أعرضها فيها . والبيت مضاء بالكهرباء ، ولكن المصابيح والمسارج مدخرة ، لك أن من الممكن أن نرتد فى حياتنا إلى عصر الزيت أو الغاز .

والخادم شىء عتيق جدا كالجبال ، ووجهه من كثرة الغضون كالمدينة تراها فى الليل من فوق مئذنة عالية . وقد حملنى صغيرا ، وفى مرجوه على مايبدو ـ أن أحمله فى كبره . والغريب أنه يشبه أبى حتى لأرانى ـ أحيانا ـ أهم بأن أدعوه بذلك . . وكلما طلبت أن يصنع لى قهوة أراه يجيئنى بفنجانة قوراء لها ظرف توضع فيه ولاتستقر عليه ، فإذا أدنيتها من فمى لأرشف منها تمايلت وأريقت على ثيابى . وإذا طلبت فنجانين من طراز حديث جاءنى باثنين مختلفين كأنى فى دكان تاجر يعرض على سلعا مختلفة ، ثم هو لايجيئنى بالقهوة إلا باردة لأن المرحوم الأفندى كان يشربها كذلك ، فأقول له ولكنى أنا لست المرحوم الأفندى فهاتها لى حرى كجهنم ، فيستعيذ بالله ، ويهز يديه المعروقتين ، ويقول لماذا تقول ذلك . قل خيرا .